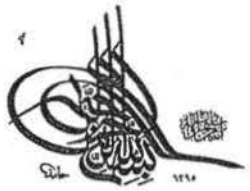

TARİHTE ve GÜNÜMÜZDE
SELEFÎLİK

Milletlerarası Tartışmalı İlmî Toplantı
08-10 Kasım 2013

Topkapı Eresin Hotel, İstanbul

İstanbul 2014

السلفية والعلمانية

حسن حنفي♦

1- التيارات السلفية المعاصرة وعلاقتها بالتيار السلفي التاريخي:

كان من ضمن توجهات الحركة السلفية المعاصرة تجاوز الفرقة العقائدية والتى تسمى اصطلاحا الطائفية، وقسمة الأمة إلى فرق ومذاهب ومدارس وتيارات حفاظا على وحدة الأمة وتأكيدا على الإخوة الدينية التى تربط بين شعوبها وأقوامها ولغاتها. فعند الأفغانى، المسلمون أمة واحدة، لا سنة ولا شيعة. بل إن "*الإباضية*" في عُمان يغضبون من استعمال التسمية القديمة لهم في كتب أهل السنة "*الخوارج*". ونشأت محاولات جديدة للتقريب منذ الشيخ شلتوت من مصر والشيخ القمى من إيران للتقريب بين المذاهب. ولها مجلتها ونشراتها ومؤتمراتها ودعاتها. فالقضية قديمة. تجاوزها العصر. وكلنا الآن مسلمون بلا مذاهب وفرق وطوائف. وهذا هو حال جمهور الأمة. وإن بقت المذهبية عند بعض العلماء حرصا على التخصص وربما أيضا صراعا على الجاه والسلطة في الداخل والقيادة والسيادة في الخارج. ارتبطت القضية بالتاريخ القديم عندما نشأ صراع على السلطة بين فرق الأمة القديمة، السنة والشيعة والخوارج، وحديثا بين السلفيين والعلمانيين. وقد خسرت الأمة في كلتا الحالتين، خسرت دولة الخلافة قديما لضعفها وتشتتها وتخلفها. ثم خسرت الدولة الوطنية حديثا لقهرها في الداخل وتبعيتها للخارج.

وقد زاد قسمة الأمة إلى مذاهب وأيديولوجيات حديثة وافدة من الغرب بين ليبراليين واشتراكيين في السياسة، وعقلانيين ووجوديين في الفلسفة، واجتماعيين وبنيويين وماركسيين وتحليليين في منهجية البحث. بل لقد انقسمت الأمة إلى سلفيين أوائل وعلمانيين أواخر، فريق يكفّر فريقا، وفريقا يخوّن فريقا لدرجة الحرب الأهلية في الجزائر. وحرم نشاط الإسلاميين في معظم الدول نظرا لسيادة العلمانية فيها، واختيارها كنظام للحكم. كما حرم نشاط العلمانيين وأنصار حقوق الإنسان في دول أخرى. فغاب الحوار بين جناحى الأمة. وأصبحت تتنفس برئة واحدة حتى أجهدت القلب.

♦ Prof. Dr., Kahire Üniversitesi, dr_h_hanafi@yahoo.com

ويخطط للأمة الآن مزيدا من التفتت والتشتت والتشرذم وتحويلها إلى دويلات طائفية وعرقية حتى تنتهى وحدة الأمة، عربية أو إسلامية. وتتحول إلى دويلات كردية وعربية وبربرية وسنية وشيعية في العراق والخليج، وزنجية وعربية في السودان، وإسلامية وقبطية في مصر، وسنية ومارونية في لبنان، وعلوية ونصيرية في سوريا، وبدوية وحضرية في الأردن حتى تصبح إسرائيل هى أكبر دولة عرقية طائفية في المنطقة. تستمد شرعية جديدة لها من طبيعة الجغرافيا السياسية للمنطقة بدلا من الشرعية القديمة التى أعطاها لها هرتزل في "*الدولة اليهودية*" في أواخر القرن التاسع عشر، العهد الأبدى المادي أحادى الطرف بين الله وبني إسرائيل، شعب الله المختار، وأرض المعاد، والنصر على الأعداء.

ويصعب تحديد الفترة الزمنية التى تعنيها "*المعاصرة*". فقد تمتد بين ثلاثة قرون من الزمان من القرن الثامن عشر حتى الآن. وبالتالى يدخل محمد بن عبد الوهاب. وقد يكون أقصر من ذلك على مدى قرنين من الزمان فقط، التاسع عشر والعشرون. وبالتالى يشمل الأفغانى وتلاميذه، محمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا وسيد قطب والجماعات الإسلامية المعاصرة، المدرسة المصرية. كما يشمل المدرسة الشامية، الكواكبى والقاسمى، والمدرسة المغربية، عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمى، والسنوسى، وعلال الفاسى، والمهدية في السودان. وقد تعنى المعاصرة ما يحدث الآن في القرن العشرين فقط، منذ الحرب العالمية الأولى، وسقوط دولة الخلافة، وتمزيق الأمة إلى دول صغيرة احتلتها قوى الغرب، فرنسا وانجلترا وإيطاليا وهولندا والبرتغال وأسبانيا وبلجيكا وألمانيا. وقد تعنى المعاصرة ما بعد الحرب العالمية الثاني فقط، وازدياد نشاط جماعة الإخوان المسلمين التى نشأت في الثلاثينات، ثم الجماعات الإسلامية المعاصرة التى خرجت من جبة الإخوان بعد اغتيال مرشدها حسن البنا في 12 فبراير 1948، وشنق مفكرها وشهيدها سيد قطب في أغسطس 1965، مثل جماعة الجهاد، والتكفير والهجرة، والقطبيين، وقف وتبين.

وقد يحدث تمييز بين الحديث والمعاصر. يضم الحديث كل ما يتلو ابن تيمية وكل الحركات الإصلاحية منذ القرن السابع عشر، الشوكانى في اليمن، والألوسيان في العراق، ثم الوهابية في السعودية، ومدرسة الأفغانى في مصر، ومدارس الشام والمغرب والسودان. ويشمل الأمر أيضا إندونيسيا وماليزيا والهند وأواسط آسيا وإيران وتركيا وأوروبا الشرقية وجنوب أفريقيا. أما المعاصر فيشير فقط إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية حتى الآن. وهو التمييز السائد في العوم السياسية .

ويصعب حصر التيارات السلفية المعاصرة لكثرتها وتشعبها والاختلاف بينها. فمعظم التيارات الإسلامية المعاصرة سلفية. وتتراوح بين سلفية نصية محافظة، وسلفية جديدة إصلاحية، وسلفية

جهادية. بل إن الأفغانى مؤسس الحركة الإصلاحية الحديثة سلفي مستنير، وتلميذه محمد عبده سلفي عقلانى. وتلميذه رشيد رضا سلفي وهابى. وتلميذه حسن البنا سلفي صوفي. وعلاف الفاسى سلفي وطنى. وعبد الحميد بن باديس سلفي عصرى. بل إن كثيرا من الحركات الإصلاحية الجديدة مثل الإسلام السياسى بكل أطيافه، والإسلام الليبرالى، والإسلام الاشتراكى أو اليسار الإسلامى، والإسلام المستنير، والإسلام العقلانى يُطلق عليها كلها السلفية الجديدة، وأحيانا الأصولية الجديدة. فالحركة الإصلاحية بنت السلفية نظرا لأن السلفية أصبحت هى التيار السائد في التراث القديم منذ القرن الخامس الهجري بعد أن اختار الغزالى الأشعرية كفرقة واحدة ناجية في العقيدة، والشافعية كمذهب واحد صحيح في الفقه. وأقصى فرق المعارضة السرية في "*فضائح الباطنية*"، والعلنية مثل المعتزلة والحسن والقبح العقليين في "*الاقتصاد في الاعتقاد*". وأعطى السلطان أيديولوجية السلطة، موحدا بين صفات الله وصفات السلطان، العلم والقدرة والحياة، والسمع والبصر والكلام والإرادة. وفي المقابل أعطى الناس أيديولوجية الطاعة في "*إحياء علوم الدين*"، الصبر، والتوكل، والورع، والتقوى، والزهد، والخوف، والخشية، والرضا إلى آخر ما هو معروف من مقامات الصوفية وأحوالهم. فالكل سلفي أى الحفاظ على الموروث القديم. وأصبحت أسماء الأئمة الأعلام حاضرة في الأذهان أكثر من غيرهم، مثل أحمد بن حنبل، وابن تيمية، وابن القيم، والعز بن عبد السلام.

وكلما زادت أزمة العصر ازداد التشبث بالسلفية كطوق نجاة من الانهيار والضياع. فقد مرت غارات على العالم الإسلامى، الصليبيون من الغرب والتتار والمغول من الشرق. وكانت السلفية أكبر عون للأمة من أجل إثبات الذات والصمود في مواجهة الآخر خاصة إذا كان الغزو يتجه نحو الهوية والشخصية والذاتية والثقافة والحضارة بل والدين. وبعد أن نجحت الأمة في صد الغارتين عليها بدأت غارة جديدة من الغرب، الاستعمار الحديث، بل ومن الشرق تحت روسيا القيصرية ثم الثورة الاشتراكية في أواسط آسيا والقضاء على الممالك الإسلامية في بخارى وسمرقند وطشقند. ومرة أخرى عادت الأمة إلى روحها وتاريخها وثقافتها وتراثها لتجد في السلفية، الأنا في مواجهة الآخر، خير عون على مواجهة التهديد الجديد. فالسلفية ليست فقط بنت التاريخ بل هى أيضا ابنة العصر. التاريخ قوة، والعصْر ضعف، ووجدت الأمة في قوتها خير معين لها على ضعفها.

بدأت السلفية المعاصرة بالحركة الوهابية في نجد وسط الحجاز تحت تأثير الألوسى في العراق. كانت نصية مثل ابن تيمية وأحمد بن حنبل. النص في مواجهة الواقع. فالنص طاقة وحركة لا تنصرف في العقل والفكر والتنظير بل في مواجهة الواقع ومظاهر البدع فيه، وعلى رأسها التوسط بين الإنسان والله بعظام الحيوان والأشجار المقدسة والأولياء والقديسين بل وأيضا بالرسول. كما ظهر في الأدعية النبوية "*أغثنا يا رسول الله*"، "*أعنا يا رسول الله*". فاتكل الناس على الدعاء وتركوا الفعل. وهو

ما سماه إقبال "*فلسفة السؤال*". سلفية نصية في الفكر، وحركية اجتماعية في الواقع. إصلاح العقيدة مقدمة لإصلاح المجتمع، وتغيير الداخل قبل تغيير الخارج.

وفي نفس الوقت تنبثق من العقيدة شريعة، وتحتاج الشريعة إلى دولة، والإيمان إلى فارس، أسوة بالموحدين والمرابطين وكل الحركات الإسلامية السياسية في التاريخ. وتبنى عبد العزيز آل سعود الحركة. وقام بتوحيد قبائل شبه الجزيرة العربية. فالتوحيد كعقيدة ينعكس في التوحيد كنظام. التوحيد هو حق الله على العبيد كما عبر عن ذلك في كتابه الرئيسى "*كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد*" بصرف النظر عن حق العبيد على الله، وواجب الله بالنسبة للعبد، وهو سماه المعتزلة "*الواجبات العقلية*"، واجب الخلق، وواجب التكليف، وواجب شكر المنعم، وواجب رعاية الأصلح، وواجب التعويض عن الآلام. وتحولت الوهابية إلى حركة سياسية، مازالت حتى الآن منتشرة في كل العالم الإسلامى. يهرب إليها كلما اشتدت عليه المآسى، وأثقلت كاهله الأحزان.

وكانت هناك بداية أخرى مختلفة تماما عند أحمد خان في الهند باسم العلم والحضارة الغربية والمدنية الحديثة، تقليدا بتقليد. تقلد الوهابية المعاصرة السلفية القديمة، وتقلد العلمانية الحديثة الحضارة الغربية، من نقيض إلى نقيض في الظاهر، والبنية واحدة، وهو النقل بصرف النظر عن مصدره، الأوائل أم الأواخر، القدماء أم المحدثون، العرب أم العجم. وانشقت الثقافة إلى تيارين متباعدين ومتخاصمين بل وعدوين لدودين. اختارت السعودية السلفية. واختارت تركيا العلمانية بعدها بقرن. ومازال الاستقطاب قائما حتى الآن. كلما زاد "*التغريب*" انطوى الناس على أنفسهم، وشدوا أزرهم بالسلفية، المعين الذى لا ينضب في الوعي التاريخي وثقافة الأمة.

وحاولت مدرسة الأفغانى التوسط بين الإخوة الأعداء، الخصمين اللدودين، والتى أصبحت نموذجا للحركة الإصلاحية. ورفعت شعار "*الإسلام في مواجهة الاستعمار في الخارج، والقهر في الداخل*". ويتحقق ذلك بالعلم والوحدة والعقل والمساواة والعدالة الاجتماعية. وهى قيم تنبع من الإسلام ورؤيته للتاريخ وحركته التي تقوم على الإخلاص والوفاء والأمانة وليس على المادية عند "*النيتشريين*" و"*العدميين*" و"*السوسياليست*" و"*الكومنيست*".

ومن تعاليم الأفغانى قامت الثورة العرابية في مصر تحويلا للإصلاح إلى سياسة كما قال عرابى في قصر عابدين في وجه الخديوى توفيق "إن الله خلقنا أحرارا ولم يخلقنا عقارا. والله لن نورَّث بعد اليوم". وكان في تصوره للعلم يعتمد على إخوان الصفا وحى بن يقظان وابن بشرون. وبعد هزيمة العرابيين واحتلال مصر في 1882 كبا الإصلاح إلى المنتصف عند تلميذه محمد عبده الذى خشى من السياسة والاصطدام بالسلطان. وآثر الإصلاح كتغير اجتماعي متدرج وليس ثورة عارمة، بداية بإصلاح

التعليم، واللغة، والمحاكم الشرعية. إلا أن عبد الله النديم تلميذه الآخر آثر الاستمرار في المقاومة لطرد المحتل باسم الجهاد والوطن. وتخفي بين الناس. ونشر الصحف. فالدين والوطن شيء واحد. وكذلك فعل تلميذه الأثير أديب اسحق إعجابا بالثورة الفرنسية. فلا فرق بين مسلم ومسيحي في حرية الفرد واستقلال الأوطان.

ولما قامت الثورة الكمالية في تركيا في 1923، وألغت الخلافة في 1924، واختارت العلمانية طريقا وأسلوب حياة حدث رد فعل عند رشيد رضا تلميذ محمد عبده. وخشى أن تتكرر التجربة في أنحاء العالم الإسلامي. فارتد سلفيا. وكتب "*الخلافة أو الإمامة العظمى*" في 1925. في حين كتب على عبد الرازق "*الإسلام وأصول الحكم*" لتكرار التجربة التركية ضد رغبة الملك فاروق تنصيب نفسه خليفة للمسلمين بدلا من السلطان عبد الحميد. وعاد رشيد رضا لينشر الأعمال الكاملة لمحمد بن عبد الوهاب الذى رده إلى ابن تيمية وابن القيم والذين رداه إلى مؤسس السلفية الأول أحمد بن حنبل. ووجدت السلفية المعاصرة خير عون في السلفية القديمة. واستمع حسن البنا إلى دروس رشيد رضا في دار العلوم. وأعاد نشر "*المنار*" بعد أن توقفت بعد موت رشيد رضا في 1935. ثم حوّل السلفية النظرية إلى سلفية جهادية نظرا لوجود قوات الاحتلال البريطانى في مصر على ضفاف قناة السويس وفي الشرقية، ولاحتلال فلسطين في 1948، ولاحتلال الهند نصف كشمير، ولبداية حركات التحرر الوطنى في المغرب العربي من أجل الاستقلال. وأراد تحقيق حلم الأفغانى بإنشاء حزب إسلامى ثورى يقوم بتحقيق الأيديولوجية الإسلامية الثورية ولم يستطع لأنه كان طريد النظم السياسية في أفغانستان وإيران ومصر والسودان وتركيا. فأسس جماعة "*الإخوان المسلمين*" في 1927 في الإسماعيلية. وبعد عشرين عاما أصبحت أقوى تنظيم إسلامى سياسى في العالم الإسلامى يضاهى فدائيان إسلام في إيران والجماعة الإسلامية في باكستان.

وبعد اغتيال حسن البنا في فبراير 1948، فقدت الجماعة شخصيتها المركزية. وظلت تبحث عن بديل إلى أن وجدته في سيد قطب الشاعر، وكاتب قصص الأطفال، والناقد الأدبي، والمفكر الإسلامي. فقد بدأ سيد قطب شاعرا وطنيا رومانسيا. ثم كتب قصصا للأطفال. ثم انشغل بالنقد الأدبى ضمن مدرسة الفن للحياة. ونصر الجديد على القديم. ثم اكتشف الإسلام من جانبه الأدبى في "*النقد الأدبى، أصوله ومناهجه*" و"*التصوير الفنى في القرآن*" و"*مشاهد القيامة في القرآن*". ثم اكتشف الجانب الاجتماعي السياسي في الإسلام في "*العدالة الاجتماعية في الإسلام*" و"*السلام العالمى والإسلام*" و"*المستقبل لهذا الدين*". وحاول وضع أيديولوجية إسلامية في "خصائص التصور الإسلامى ومقوماته". وفرحت به الثورة المصرية عند اندلاعها في 1952. وكان من بين دعاتها. ونشر مقالاته وأحاديثه الإذاعية في "*دراسات إسلامية*". ولما وقع الصدام بين الإخوان والثورة في 1954

كان سيد قطب هو الضحية. سجن وعذب وأهين. فكتب أسوأ ما كتب "*معالم في الطريق*". يعبر عن نفسية السجين. ويقسم العالم قسمين، الإسلام والجاهلية، الله والطاغوت، النور والظلمة، الإيمان والكفر كما يفعل أسامة بن لادن في ظروف مشابهة، تقسيم العالم إلى فسطاطين، فسطاط الإيمان وفسطاط الكفر. ولن يتغير العالم إلا إذا قضى أحد الطرفين على الآخر، قضاء الحق على الباطل. ولن يتحقق ذلك إلا بجيل قرآنى فريد، تحت شعار "*لا إله إلا الله*". فاتهم بتأسيس تنظيم لقلب نظام الحكم. وأعدم شنقا في أغسطس 1965.

واشتدت الحركة السلفية بعد أن دخلت جماعة الإخوان السجون. وظهرت من داخلها جماعات التكفير والهجرة تمارس العنف مثل جماعة شكرى مصطفي، واغتيال الشيخ الذهبى في 1976، وجماعة الجهاد الإسلامى للنبهانى والتى حاولت الاستيلاء على الفنية العسكرية في 1974. وكان أهم حدث لها اغتيال رئيس الجمهورية الثانية في أكتوبر 1981 لأنه "*قرب الأشرار وأبعد الأغيار*"، وعقد صلحا مع بنى إسرائيل، وارتمى في أحضان الغرب والولايات المتحدة الأمريكية، وتحول من الاشتراكية إلى الرأسمالية باسم الانفتاح، وقسّم الأمة فريقين.

بدأت الجماعات الإسلامية من حيث انتهى إليه سيد قطب وصاغت مفاهيم، ورفعت شعارات. كانت المفاهيم مثل "*الحاكمية*" و"*الربوبية*" و"*الألوهية*" و"*العبودية*". ومصدرها كتاب "*المصطلحات الأربعة في القرآن*" لأبى الأعلى المودودى الذى سُرِّب إلى سيد قطب في السجن، فتأثر به. وهى تعبر عن أحوال "*المفاصلة*" لدى المسلمين في الهند واستحالة تعايشهم مع الهندوس، مما أدى إلى تقسيم الهند إلى هندوستان للهنود، وباكستان للمسلمين. البداية بالألوهية. فالله هو البداية والنهاية. هو المبتغى والمصير. وهى نظرة إلهية خالصة تلغى كل شىء إلا الله كما هو الحال في نظريات وحدة الوجود. وتعنى الربوبية أن الألوهية فاعلة في العالم، وأن الله ليس فقط إلها بل ربا. وتعنى العبودية أن الإنسان عبد لله، لا كيان له في ذاته إلا العبودية. ونتيجة لذلك تنشأ "*الحاكمية*" كشاهد على الألوهية والربوبية والعبودية. فالحكم لله وليس للبشر "*ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون*"، "*ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الضالون*"، "*ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون*".

ورفعت شعارات أخرى تشرح "*الحاكمية*" مثل: "*الإسلام هو الحل*"، "*الإسلام هو البديل*"، "*تطبيق الشريعة الإسلامية*". وساعدت الظروف النفسية والاجتماعية على بلورة هذه الشعارات فخاطبت الماضى والحاضر، الوعى التاريخى والبنية النفسية. "*الإسلام هو الحل*" بعد أن جربت كل الحلول الممكنة الممثلة في أيديولوجيات التحديث مثل الليبرالية والاشتراكية والماركسية والقومية.

فلم يُحل شيء. بل ازدادت الأمور تعقيدا. فأصبح "*الإسلام هو البديل*" بعد أن تفاقمت الأزمات، وجربت البدائل الوافدة إلا البديل الموروث. خاصة وإذا كان الإسلام نجح في الماضى في تأسيس حضارة وإقامة دول وإنشاء إمبراطوريات فلماذا لا ينجح في الحاضر؟ والإسلام قادر على تحريك الجماهير وتنوير الناس في الثورة الإسلامية في إيران، والحفاظ على الهوية في أوروبا الشرقية وفي أواسط آسيا، وفي مواجهة الموجة الاستعمارية الغربية الثانية الممثلة في العولمة والصهيونية ببروز حركات الجهاد وحماس والمقاومة الإسلامية في فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير وجنوب أفريقيا ضد النظام العنصرى. لذلك لزم "*تطبيق الشريعة الإسلامية*" خير من القوانين الظالمة السائدة التى تزيد المواطنين قهرا وفقرا. فالقانون لا يعمل لصالح الناس بل نشأ لصالح طبقة أو فئة أو تعبيرا عن إرادة حاكم. وكى تتحقق مصالح الناس لابد من التحايل على القانون بالرشوة والعصيان. فأصبح الناس يرفعون شعارات الإسلام هربا من مآسى الواقع وظلمه. فلعلهم في الإسلام يجدون الفرج. وهى شعارات أكثر فاعلية، ونابعة من ثقافات الناس ومن وعيهم التاريخى، وخير من شعارات وافدة مثل: حقوق الإنسان، حقوق المرأة، حقوق الأقليات، المجتمع المدنى، الديموقراطية، ديكتاتورية البروليتاريا، رأس المال، فائض القيمة، الملكية العامة لوسائل الإنتاج، العمل مصدر القيمة، الأمة مصدر السلطات، الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة.

ولمزيد من تأكيد الذات أمام عواصف العصر تم التمسك بالشعائر والطقوس والمظاهر الخارجية: الأداء العلنى للصلوات، الجهرة في صلاة الجمعة والعيدين، والبراءة في الحج، والأذان المرتفع، وإطالة اللحى، ولبس الجلباب الأبيض، وعدم مصافحة النساء أو مجالستهن، والدعاء في كل الحركات والسكنات، وقراءة القرآن في المواصلات العامة، والتمتمة بالشفتين في الطرقات.

ويفسر القرآن تفسيرا حرفيا دون تأويل أو تخريج. فالنص بيّن واضح. الشريعة ليلها كنهارها، ناصعة بيضاء. ولو شاء الله التأويل لفعل. ولا خطر في التجسيم والتشبيه في أخذ الصفات على علاتها دون تمحك بالمجاز في اللغة. فالله يستوى على العرش لا بمعنى يستولى أى القدرة والعظمة بل بمعنى الاستواء الحرفي. فالاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. والشريعة ثابتة، والحدود قائمة. ولا مجال لتأويلها إذا ما تغيرت الظروف وتبدلت الأحوال كما فعل عمر في تأويل حد السارق في عام المجاعة، وتأويل المؤلفة قلوبهم بعد انتشار الإسلام.

والنص صريح في تحريم المولاة "*لكم دينكم ولى دين*"، "*ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملتهم*". ومن ثم يستحيل الحوار مع المستعلى الجبار الذى يسير في الأرض مرحا يظن أنه قد خرق الأرض وأنه بلغ الجبال طولا. لا حوار مع الآخر المغتصب إلا الجهاد، ولا مواجهة معه إلا

بالاستعلاء. والنص يغنى عن العقل وهو الحاكم عليه. ولا حوار بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر. والآخر ليس من أهل الكتاب لأنه حرفه وبدله وغيّره وخبأه وأخفاه.

والحقيقة مطلقة لا نسبية فيها ولا تعدد. والإنسان قادر على معرفتها. لا وجهات نظر في الحق. الحق هو الحق. ملزم للمعرفة الإنسانية المستقبلة له ودون اجتهاد فيه. والسلفية هى الأقدر على معرفته بما لها من إيمان وتسليم وطاعة وهو كل واحد لا يتجزأ. يُعرف مرة واحدة ولا تدرج فيه. فيه خطأ وصواب وخارج قوانين الاحتمال.

والحقيقة إلهية وليست إنسانية، نازلة من السماء وليست صاعدة من الأرض. النقل أساس العقل، والوحى معرفة إنسانية مطلقة. والكل راد والكل مردود عليه إلا الرسول.

وفي التطبيق، الإسلام لا يتجزأ، إما أن يُطبق كله أو يُترك كله. والحدود والكفارات قبل الحقوق والواجبات ولا تدرج في التطبيق. فتطبيق الشريعة تسليم بالعقيدة، وليس فقط طبقا لمصالح الناس.

والأولوية للسياسة، ولتغيير نظام الحكم، ولولاية الفقيه. "إن الله ينزع بالسلطان ما لا ينزع بالقرآن". فطاعة أولى الأمر من طاعة الرسول، وطاعة الرسول من طاعة الله " *وأطيعوا الله، وأطيعوا الرسول، وأولى الأمر منكم*". لذلك لا ضير في الانقلاب. والانقلاب في الفارسية يعنى التغيير كما بين أبو الأعلى المودودى في "منهاج الانقلاب الإسلامى".

ولا ضير في البداية بالدعوة السرية، وتنظيم خلايا تحت الأرض استعدادا للانقضاض على سدة الحكم. فقد بدأت الدعوة الإسلامية سرية قبل أن تتحول إلى علنية، في مكة قبل المدينة. ولا فرق في ذلك بين سنة وشيعة. إذ يخضع كلاهما لظروف قهر واحدة.

ولا حرج في ممارسة العنف. فالعنف في الله شهادة " *وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم*"، و"المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف". وقد كان الرسول يدعو دائما "اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين". والعنف في الحقيقة هو عنف مضاد. ولا يفل الحديد إلا الحديد، عنف الفرد في مواجهة عنف الدولة، وعنف الحق في مواجهة عنف الباطل. *"إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا ترجون"*.

تحولت الحركة السلفية الآن وتحت ضغط الظروف إلى حركات جهادية مثل حماس والجهاد في فلسطين والعراق والشيشان وأفغانستان وكشمير على مختلف أسمائها. وليس في الوقت متسع لبيان نظرى أو لصياغات عقلية أو لمداخل منهجية مادامت الأوطان محتلة، والشعوب مقهورة،

والكرامة مطعونة، والعرض مستباح. ولم يعد هناك فرق على مستوى العمل بين السلفية والوطنية، بين الحركات الإسلامية والحركات العلمانية المتألفين في الوطن ومقاومة الاستعمار أى بين الإخوان والشيوعيين في حوارهم الأخير.

وقد نشأت معظم الحركات السلفية في أتون معارك التحرر مثل حزب الاستقلال في المغرب العربى، وجمعية علماء المسلمين في الجزائر، والحزب الوطنى ثم الإخوان المسلمين في مصر، والسنوسية في ليبيا، والمهدية في السودان، ومجاهدى خلق وفدائيان إسلام في إيران، والجماعة الإسلامية في باكستان وإندونيسيا. فالعمل له الأولوية على النظر. والتحرر يتقدم التنظير. وهو رد فعل طبيعى على الدعوات الصوفية التى تكتفي بالعبادة أو المعارضة اليسارية التى تكتفي بالقول.

إن السلفية الجديدة الآن محاولة لاستئناف الإصلاح الدينى، وإقالته من عثرته، وتجاوز كبوته. فقد تعددت الرؤى بحيث لم تعد هناك حركة سلفية واحدة. وتعددت المناهج بحيث لم يعد الجهاد هو المعبر الوحيد. هناك "*اليسار الإسلامى*" وهو تفسير اجتماعى سياسى للإسلام طبقا للتحديات الرئيسية للعصر خاصة الفقر والقهر، استئنافا لتفسير "*المنار*" لمحمد عبده ورشيد رضا، وإبرازا للقضية الاجتماعية. وقد جسده أخيرا حزب العدالة والتنمية في تركيا والمغرب، وحزب العدالة والمساواة في السودان- دارفور، وحزب العمل الاشتراكى في مصر، وشركة إسلام في إندونيسيا. يتأسى بأبى ذر الغفارى، ويسير على نهجه، ويؤكد حق الفقراء في أموال الأغنياء، والملكية العامة لوسائل الإنتاج، والركاز، والإقطاع المشاع، وتداول رأس المال، والعمل مصدر القيمة.

وهناك الإسلام المستنير الذى مازال ينتسب إلى محمد عبده في "*رسالة التوحيد*"، والتحول من الأشعرية إلى الاعتزال، والقول بالحسن والقبح العقليين، وبخلق الأفعال، وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ويقول بأصلى التوحيد والعدل. فالتوحيد بلا عدل ظلم، والعدل بلا توحيد نسبية. ويسمى أيضا "*الرشدية الجديدة*" أو الإسلام العقلانى الذى يجمع بين عقل المعتزلة وابن رشد والحنفية. ويلتقى مع دعاة العقلانية الغربية وإن اختلف المصدر.

وهناك الإسلام الليبرالى الذى يؤكد على قيمة الحرية تأسيا بقول عمر: "لماذا استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا". فالتوحيد إعلان عن الحرية. يبدأ بالشهادة، الشهادة على العصر بالوحدانية. ويبدأ بالنفي "*لا إله*" ثم بالإثبات "*إلا الله*". والساكت عن الحق شيطان أخرس. والجهر بالقول حق الشهادة. وأعظم شهادة كلمة حق عند إمام جائر. والخشية من الله وليست من السلطان" *إن الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل*". والدين النصيحة لأولى الأمر ولعامة الناس.

وهناك الإسلام الإنسانى الذى يركز على أهمية حقوق الإنسان حتى لا يستأثر الغرب وحده بالفضل كله. والإنسان أفضل ما في الكون. رمزه آدم، خليفة الله في الأرض. وهو الذى حمل الأمانة طوعا واختيارا. " *إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان*". وقد روّج الصوفية، ابن عربى، والجبلى إلى عقيدة "*الإنسان الكامل*" التى يمحى فيها الفرق بين الإنسان والله. ولا فرق بين حقوق الإنسان وحقوق الشعوب.

وهناك الإسلام الوطنى الذى أصبح من سمات الحركة السلفية المعاصرة عند الأفغانى وعلال الفاسى وحسن البنا. لا فرق بين الوطن والعروبة والإسلام. وقد كان الرسول يحن إلى مكة بعد الهجرة. وكان عمر يريد أن يجعل شبه جزيرة العرب دينا واحدا في وطن واحد. وكتب أبو حيان " *الحنين إلى الأوطان*" وروى الطهطاوى " *حب الوطن من الإيمان*".

وهناك الإسلام التعددى الذى يسمح بتعدد وجهات النظر. وهو درس من أصول الفقه القديم، أن الصواب متعدد. "للمخطئ أجر وللمصيب أجران". الحق النظرى متعدد وإن كان الحق العملى واحدا، وهو تحقيق مصالح الناس. والحضارة الإسلامية حضارة تعددية، فرق كلامية، وطرق صوفية، ومذاهب فقهية. فليس الغرب وحده هو حضارة التعدد الذى يعنى النسبية واللاأدرية والعدمية. وذلك ضد الموروث القديم، أن الصواب واحد، تمثله فرقة واحدة هى الفرقة الناجية.

لقد بدأت الحركة السلفية المعاصرة تميل نحو الاعتدال. تنبذ العنف، وتقبل بالتعددية السياسية، والحوار مع المخالفين، والاحتكام إلى صناديق الاقتراع، والنزول إلى معترك الحياة السياسية على أساس برامج اجتماعية وسياسية وليست دينية. وتمت مراجعة النفس، ورفض تكفير الخصوم. وكلما تحسنت الأوضاع في الداخل، واستقلت الأوطان، كلما زال القهر والفقر والعجز والإحباط في الداخل وزالت التبعية للخارج، تصح الحركة السلفية وتصبح إضافة إلى وعى الأمة ومسارها في التاريخ وليس نقصا منها أو انحرافا عنه. وفي هذه الحالة قد يتغير الاسم نظرا لما يوحيه من إتباع للسلف واتجاه نحو الماضى " *فخلف من بعدهم خلف، أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات*". وقد يصبح معنى السلفي التقدمى كالأسد الذى إذا قفز إلى الأمام خطوات يتأخر إلى الوراء خطوات " *فالسابقون السابقون*"، " *لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر*".

هذا بحث اجتهادى عقلى يحلل التجارب العامة للأمة، وهو جزء منها، بعيدا عن الاستشراق التاريخى. وهو بحث حى يخرج من أتون المعركة، ويتعامل مع ظواهر حية، وليس بحثا ميتا يخرج من أقبية التاريخ.

2- الإصلاح بين السلفية والعلمانية:

منذ اتصال العالم الإسلامى بالغرب الحديث منذ القرن الثامن عشر نشأت ثلاثة تيارات فكرية واختيارات سياسية، مازالت مستمرة حتى الآن وأصبحت قضية العصر الحديث كله.

الأول التيار العلمانى الذى نشأ في الهند عند السيد أحمد خان بعد أن قضت بريطانيا على إمبراطورية المغول، وأصبح "*النموذج الأوروبى*" هو النموذج الوحيد للتحديث. والبداية بالتعليم وإنشاء المدارس الحديثة وخلق جيل جديد من اللوردات المسلمين، وتقوم ملكة بريطانيا بدور خليفة المسلمين. وهو نفس تيار تركيا الفتاة، وجمعية الاتحاد والترقى والقومية الطورانية لإنقاذ تركيا من نظام الخلافة القاهر في الداخل والضعيف في الخارج والذى أدى إلى هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى والذى جسده مصطفي كمال بثورته في 1923 وإلغائه نظام الخلافة في 1924. واستمر هذا التيار في الوطن العربى خاصة عند بعض المهاجرين الشوام إلى مصر مثل شبلى شميل، وفرح أنطون، ونقولا حداد، ومن المصريين سلامة موسى وإسماعيل مظهر وزكى نجيب محمود ومازال مستمرا عند فؤاد زكريا. وسياسيا يتبنى الليبرالية أو اللامركزية أو التعددية السياسية أو العلمانية أسوة بالنظام السياسى الغربى.

والثانى التيار السلفي كرد فعل طبيعى على التيار العلمانى. فالانبهار بالجديد ينقلب إلى الدفاع عن القديم، وتقليد الغرب الحديث يؤدى إلى تقليد القدماء. فلا يصلح هذه الأمة إلا ما صلح بها أولها. ويعتبر عادة محمد بن عبد الوهاب زعيم السلفيين في القرن الثامن عشر في شبه الجزيرة العربية وكما عرض في "*التوحيد الذى هو حق الله على العبيد*". وبالرغم من تعلمه على يد بعض الإصلاحيين في العراق مثل الألوسى إلا أنه اكتشف ابن تيمية الذى رده إلى أحمد بن حنبل وأصبح المصدر الأول لزعيم السلفيين المعاصرين رشيد رضا حتى الحركات الإسلامية المعاصرة. ومثله أبو الهدى الصيادى في تركيا وفي النظام الشاهنشاهى في إيران قبل الثورة في 1979.

والثالث التيار الإصلاحى الذى نشأ في مصر في مدرسة الأفغانى الذى هاجر إليها واستمر فيه تلاميذه من بعده محمد عبده وحسن البنا في مصر، وشكيب أرسلان والقاسمى والكواكبى في الشام، وعلال الفاسى في المغرب، وعبد الحميد بن باديس في الجزائر، والسنوسى حتى الطاهر بين عاشور في تونس، وعمر المختار في ليبيا، والمهدى في السودان. والكل ينتسب إلى الألوسيين في العراق والشوكانى في اليمن وحركة الإصلاح المعارضة الآن في شبه الجزيرة العربية في الداخل والخارج.

ومن ثم نشأ طرفان ووسط. طرفان: العلمانية والسلفية، ووسط وهو الإصلاح. وكانت الاختيارات الثلاثة معروضة على العالم الإسلامى ووقعت أحداث حتمت هذا الاختيار أو ذاك. فلما

صاغ الأفغانى الإسلام في العصر الحديث في شعار: الإسلام في مواجهة الاستعمار في الخارج والقهر في الداخل تبنى الضباط المصريون الشعار بقيادة أحمد عرابى الذى وقف في ميدان عابدين مع رفاقه مواجها الخديوى توفيق "إن الله خلقنا أحرارا ولم يخلقنا عقارا. والله لا نُورّثُ بعد اليوم". وجاء الإنجليز واحتلوا مصر في 1882 بعد هزيمة العرابيين العسكرية بذريعة حماية سلطان مصر والدفاع عن نظام الخلافة. فخشى محمد عبده من عواقب الثورة السياسية ومناطحة السلطة السياسية والانقلاب عليها والخروج على الحاكم فآثر التغير الاجتماعى وإصلاح المحاكم الشرعية ونظام التعليم والقضاء على العادات الاجتماعية مثل "*سفه الفلاح*". فلما قامت الثورة الكمالية في تركيا بقيادة مصطفي كمال ونجح العلمانيون في الاستيلاء على الحكم خشى رشيد رضا، تلميذ محمد عبده الأثير، من أن يتكرر النموذج التركى في باقى أرجاء العالم الإسلامى فارتد سلفيا كرد فعل على العلمانية. وارتد الإصلاح مرة ثانية إلى الوراء. فلما أراد حسن البنا، تلميذ رشيد رضا في دار العلوم، إحياء مشروع الإصلاح من جديد، ليس فقط على مستوى الأيديولوجية الثورية كما حاول الأفغانى في "*العروة الوثقى*" بل أيضا على مستوى التنظيم الثورى الذى لم يستطع الأفغانى إنجازه لأنه لم يستقر في مكان واحد، وكان مطاردا في أفغانستان وإيران والحجاز ومصر والسودان وتركيا حتى استقر في باريس. أنشأ حسن البنا جماعة الإخوان المسلمين على ضفاف القناة في الإسماعيلية عام 1928. وأصبحت في ظرف عقدين من الزمان وحتى الآن أكبر تنظيم سياسى إسلامى في كل أرجاء الوطن العربى والعالم الإسلامى. حاربت في فلسطين، وشاركت في معظم الثورات العربية منذ منتصف الخمسينيات. ومازالت تمثل التحدى الرئيسى للنظم السياسية القائمة. فقرر القصر والإنجليز التخلص من حسن البنا فاغتيل في فبراير 1949. ودخلت الجماعة السجون. ولما اصطدمت بالضباط الأحرار في مصر في 1954 دخلوا السجون من جديد. وتحول سيد قطب، أكبر مفكر إصلاحى معاصر مثل أبى الأعلى المودودى في باكستان، من مفكر اشتراكي وناقد أدبى رومانسى إلى مفكر غاضب من آثار التعذيب. وانتقل من "*العدالة الاجتماعية في الإسلام*" و"*معركة الإسلام والرأسمالية*" و"*السلام العالمى والإسلام*" و"*خصائص التصور الإسلامى ومقوماته*" الذى يقوم على التوازن والوسطية إلى "*معالم على الطريق*" الذى يقسم فيه المجتمع إلى جاهلية وإسلام، إله وطاغوت، إيمان وكفر، حق وباطل. ولا يمكن المصالحة بين الاثنين إلا بقضاء الثانى على الأول بتكوين جيل قرآنى فريد تحت شعار "*لا إله إلا الله*". وكان سيد قطب قد تأثر في السجن بكتاب أبى الأعلى المودودى "*المصطلحات الأربعة في القرآن*" الألوهية، والربوبية، والحاكمية، والعبودية والتى تعبر عن الصراع بين المسلمين والهندوس في الهند، وتدعو إلى المفاصلة التى أدت إلى انفصال باكستان عن الهند. وما حدث من انهيار في التيار الإصلاحى حتى أصبح سلفيا حدث أيضا في التيار العلمانى بعد أن قوى

التغريب فيه. فقد حرص شبلى شميل على تبرير نظرية التطور بالآيات القرآنية والتراث الإسلامى وتأسيس علم الاجتماع اعتمادا على ابن خلدون. ثم انفصل تلميذه أحمد لطفي السيد عن الموروث واعتمد على الوافد الغربى كله، ابتداء من ترجمة كتاب "*السياسة*" لأرسطو حتى الليبرالية السياسية وتأسيس أحزاب الأقلية المتعاونة مع القصر. فزادت المسافة بين السلفية والعلمانية. ولم تنفع إسلاميات العقاد أو محمد حسين هيكل أو طه حسين أو خالد محمد خالد في التقريب بين التيارين المتباعدين. بل إن طه حسين في "*مستقبل الثقافة في مصر*" روّج للنموذج الغربى بكامله حتى تكون مصر قطعة من أوروبا مرتبطة بالثقافة اليونانية واللاتينية، ثقافة البحر الأبيض المتوسط وليست بالثقافة الأسيوية حيث يعيش ثلاثة أرباع المسلمين مثل رينيه حبشى في لبنان. وانقلب خالد محمد خالد من الليبرالية في بداية حياته في "*من هنا نبدأ*" إلى السلفية في "*رجال حول الرسول*". وازداد الانبهار بالغرب عند سلامة موسى في "*هؤلاء علمونى*" وكلهم من أساطين الفكر الغربى وأدبائه ولا يوجد مفكر إسلامى واحد. ولم تنفع محاولات فرح أنطون تأصيل العلمانية في فلسفة ابن رشد. بل انقلب إسماعيل مظهر من "*أصل الأنواع*" في أول حياته إلى "*الإسلام أبدا*" في آخر حياته. وازداد التعارض إلى حد التناقض بين السلفية التى صب فيها الإصلاح، والعلمانية التى صب فيها التيار العلمى العلمانى.

وإذا كان التيار العلمانى الأول الذى يتبنى النموذج الغربى ضعيف النشأة، حملته الأقلية إلا أنه اشتد أكثر فأكثر بزيادة الانبهار بالغرب في عصر القطب الواحد والعولمة والقنوات الفضائية ووسائل الاتصال الحديثة وقيم الاستهلاك واتساع رقعة الطبقات الغنية. كما اشتد التيار السلفي داخل السجون أولا وخارجها ثانيا لضعف الدولة الوطنية وضياع الاستقلال الوطنى وتحولها إلى دولة قاهرة للداخل وتابعة للخارج. فتحولت إلى حركة سلفية جهادية لصد الهجمة الجديدة على الوطن العربى والعالم الإسلامى باحتلال باحتلال كل فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان واستمرار احتلال كشمير وسبته ومليليه في المغرب. واستطاعت حشد الجماهير وتقديم البديل كما تعبر عن ذلك شعاراتها "*الإسلام هو الحل*"، "*الإسلام هو البديل*"، "*الحاكمية لله*"، "*تطبيق الشريعة الإسلامية*". وكلما ضعفت الدولة الوطنية اشتد الاستقطاب بين التيارين المتنازعين كسلطة بديلة. بل وصل الآمر إلى حد الحرب الأهلية في الجزائر والتى كان ضحيتها أكثر من مائة ألف شهيد، وإلى معارك مسلحة في شبه الجزيرة العربية. ومازال التوتر قائما بين التيارين في مصر وليبيا وسوريا. واستطاع بعضها الوصول إلى الحكم في السودان وإيران.

وإذا كان التيار العلمى العلمانى قد رفع شعار "لا يتغير شىء في الواقع إلا إذا بدأنا بعلوم الطبيعة أولا وتم الفصل بين الدين والدولة ثانيا"، وإذا كان التيار الإصلاحى قد رفع شعار "لا يتغير

شيء في الواقع إن لم نعد فهمنا للدين أولا" فإن التيار الليبرالى السياسيى الذى مثله الطهطاوى في مصر، وخير الدين التونسى وابن أبى ضياف في تونس، وحركة التنظيمات عند أنور باشا ومدحت باشا في تركيا قد رفع شعار "لن يتغير شيء في الواقع إن لم نبن الدولة الحديثة أولا". وهو ما فعله الطهطاوى مع محمد على والتونسى مع باى تونس، وأنور باشا مع السلطان عبد الحميد. ولما ضعفت الدولة تحول هذا التيار إلى تيار تبريرى للسلطة القائمة وراء الدولة وليس أمامها. وجاءت الليبرالية المدنية تعطى الأولوية لحقوق الإنسان و المجتمع المدنى وقضايا المرأة والأقليات على الدولة بتشجيع من الغرب مما زاد الاستقطاب بين السلفية والعلمانية.

يستطيع الإصلاح أن يعاود الكرة حماية للأمة من الضغوط الخارجية والمشاريع المفروضة عليها مثل مشروع الشرق الأوسط الكبير، والمتوسطية والعولمة. كما يستطيع حماية الأمة من تفتيت الأوطان بعد القضاء على الخلافة أولا ثم على المشروع القومى العربى ثانيا ثم على الدولة القطرية ثالثا بتفتيتها إلى فسيفساء عرقى طائفي. وهو ما يحدث حاليا في العراق. كما يستطيع استدعاء الحركات الإصلاحية المهاجرة لعودتها إلى الداخل واستئناف مشروعها الإصلاحى بالحوار مع التيارات الأخرى في إطار من الشرعية والحوار الوطنى الشامل بين كل التيارات الفكرية والسياسية، خاصة بعد انتشار الدعوات إلى الوسطية، ونبذ التطرف والحوار بين الحكومة والمعارضات، والتعددية السياسية. وتجارب الأردن والمغرب وتركيا رائدة في ذلك.

إن الإصلاح الجديد يتطلب أولا موقفا نقديا من القديم وإعادة بناء علومه بما يتفق مع تحديات العصر وأزماته. كما يتطلب ثانيا موقفا نقديا من الغرب الحديث وتحويله من مصدر للعلم كى يصبح موضوعا للعلم من أجل القضاء على أسطورة النموذج الأوحد، والثقافة العالمية، والمعلم الأبدى. كما يستدعى ثالثا التنظير المباشر للواقع الذى نعيشه وتحويله إلى نظرية حتى لا يكتفي الإصلاح بتأويل النصوص القديمة ونقد النصوص الجديدة دون تحويل الواقع إلى نص جديد خاصة وأن الحضارة العربية الإسلامية متهمة بأنها حضارة نص كما قال محمود درويش: واحتمى أبوك بالنصوص فدخل اللصوص.

مهمة الإصلاحيين الجدد هو تقييم التجارب الإصلاحية الماضية على مدى قرنين من الزمان من أجل استئنافها في حركة إصلاحية جديدة تنهى هذا الاستقطاب القاتل بين السلفية والعلمانية حفاظا على وحدة الأوطان واستقلالها.

3- الفتنة بين السلفيين والعلمانيين:

هل يحتاج الوطن العربي إلى فتنة جديدة تزيده تقسيما وتفتيتا وتجزئة؟ وكيف يتم ذلك بأيدينا وليس بأيدي أجنبية، أمريكية صهيونية؟ وفي نفس الوقت نقرأ تاريخنا ونعيب على أنفسنا وقوعنا في الفتنة الكبرى الأولى بين عليّ ومعاوية. وننعي لأنفسنا ضياع الأندلس للحروب بين ملوك الطوائف وسقوط الإمبراطورية العثمانية للفتنة العرقية فيها بين الأتراك والأرمن والعرب ومختلف القوميات في أوروبا الشرقية.

إن الخصومة الدائرة الآن بين السلفيين والعلمانيين إنما تساهم في تفتيت الأوطان من الداخل، وهي في أشد الحاجة إلى التمسك بالوحدة ضد مخاطر التفتيت من الخارج، والوقوف أمام المخطط الأمريكي الصهيوني لتفتيت الأوطان بداية بالعراق وكما قرر الكونجرس الأمريكي بجلسته أخيرا إلى مناطق ثلاث، كردية في الشمال، وسنية في الوسط، وشيعية في الجنوب. والصراع بين عشائر وقاعدة وليس بين المقاومة والاحتلال. وهو ما يجري الحال الآن بالنسبة إلى السودان وتقسيمه إلى شمال عربي إسلامي، وجنوب زنجي مسيحي، وغرب عرقي وشرق قبلي. والخطر مازال قائما على الخليج كله وتقسيمه طائفيا ومذهبيا إلى سنة وشيعة أو عرقيا بين عرب وأسيويين، والأمم المتحدة بالمرصاد تتلقى توجيهات الدول الكبرى باسم حقوق الإنسان وحقوق الأقليات. والخطر يهدد المغرب العربي كله وتقسيمه إلى عرب وبربر، والمغرب إلى مغاربة وصحراويين، وتشاد ومالي ونيجيريا إلى شمال عربي مسلم وجنوب زنجي مسيحي. بل ويهدد شبه الجزيرة العربية كلها إلى نجديين في الوسط وحجازيين في الغرب، ورافضة وسنة في عمان، وزيدية وشوافع في اليمن. ويهدد التقسيم لبنان إلى مسلمين وموارنة كما حدث في الحرب الأهلية أو إلى مولاة ومعارضة كما يحدث الآن. والخطر يهدد الأردن وتقسيمه إلى بدو وحضر. ويهدد سوريا بتقسيمها إلى علويين في الحكم وسنة في المعارضة. وقد تقع حروب أهلية بين السلفيين والعلمانيين لتهدد وحدة الأوطان كما يحدث في الجزائر دائما وفي المغرب أحيانا. وقد يقع الشقاق بين السلفيين والإصلاحيين كما يحدث في الكويت. وهو ما يهدد الأمن القومي في مصر في الفتنة النائمة بين المسلمين والأقباط بالرغم من ادعاءات الوحدة الوطنية ومظاهرها المفتعلة وقضايا التنصير والطلاق والزواج المشترك، والسلوك المعيب لبعض الرهبان، والفتاوى الرنانة لبعض المشايخ بالنسبة لإرضاع الكبار أو التبرك ببول الرسول أو التوتر داخل الحزب الحاكم بين الرعيل الأول والرعيل الثاني أو بين الحكومة والمعارضة على كل المستويات، الحكم والتوريث والخصخصة والفساد وآخرها حبس رؤساء تحرير الصحف المستقلة.

وأخيرا برزت في مصر فتنة جديدة بين أبناء الوطن الواحد بين السلفيين والعلمانيين. العلمانيون يهاجمون السلفيين آراء ومواقف وشخصيات وكأنه لا يوجد خطر في البلاد إلا منهم. ولا يهاجمون المطبعين مع إسرائيل والمتأمركين باسم الليبراليين الجدد، ولا الأغنياء الجدد في مارينا وسواحل البحر الأحمر والأبيض، ولا احتكار الحديد والأسمنت، ولا بيع القطاع العام والمؤسسات والشركات والبنوك باسم الخصخصة، ولا تزوير الانتخابات، ولا قوانين الطوارئ أو قانون مكافحة الإرهاب، ولا حبس الصحفيين، ولا التفاوت الشديد بين الأغنياء والفقراء، ولا مظاهر الفساد الاقتصادي والسياسي، ولا الشللية في الحكم وجماعات الضغط. ومن ثم يضع العلمانيون أنفسهم في نفس الخندق مع الحكومة التي تعتبر الإسلاميين ممثلين في الإخوان المسلمين عدوهم الأول، وخندق الأمريكيين في اعتبار الحركات السلفية الجهادية في العراق وأفغانستان وفلسطين وفي أمريكا وأوروبا عدوها الأول والذي بمواجهته يجد المحافظون الجدد شرعية لوجودهم، وتبريرا لسياساتهم العدوانية على الشعوب، وذريعة لتكوين الإمبراطورية الأمريكية الجديدة.

والصراع بين السلفيين والعلمانيين في حقيقته ليس صراعا فكريا. فهناك سلفية علمانية وهناك علمانية سلفية. هو صراع على السلطة، ونيل الحظوة لدى الحاكم، والتسرب إلى أجهزة الدولة ومواطن السلطة فيها اقتصادية وسياسية وثقافية واجتماعية بل وقضائية. وقد استثمر الحكام هذا الصراع على السلطة والتسابق إليها بالاعتماد على العلمانيين مرة لاستبعاد السلفيين أو بالاعتماد على السلفيين مرة أخرى لإقصاء العلمانيين حتى يضعف الجناحان ويقوى القلب ولا يكون هناك بديل آخر، لا "*الإسلام هو الحل*" ولا "*العلمانية هي الحل*" بل "*الحكومة هي الحل*".

والحقيقة أن الاستقطاب الحالي بين السلفيين والعلمانيين هو استقطاب مفتعل نظرا لوجود تيارات علمانية داخل الحركة السلفية مثل حزب الوسط بل والإخوان المسلمين أنفسهم في مصر وسوريا ولبنان واليمن والمغرب. تقول بالدولة المدنية وبأن السلطة للشعب، وتدافع عن التعددية السياسية، وتلجأ إلى صناديق الاقتراع. فالمسافة بينها وبين العلمانيين ليست كبيرة. والإطار المرجعي العام الإسلامي أو الغربي يلتقيان في المصالح العامة. فالمصلحة أساس التشريع. والشريعة وضعية كما قرر الشاطبي مثل القانون الوضعي. ومن العلمانيين من يسلم بأن الإسلام هو التراث القومي للأمة وثقافتها الوطنية. هناك إذن جسور التقاء بين السلفيين والعلمانيين تسمح بالحوار الفكري والوطني بينهما من أجل مواجهة العدو المشترك، القهر والفساد في الداخل والتبعية للخارج والاعتماد عليه. وحركة النهضة التي يعتز بها العلمانيون، الأفغاني، ومحمد عبده وقاسم أمين والطهطاوي وطه حسين والعقاد، جذورها ومنطلقاتها وأطرها المرجعية سلفية.

وليست كل الحركات السلفية تمارس العنف ضد الأبرياء. فالسلفيون يجاهدون في فلسطين والعراق وأفغانستان وكشمير. ويقاومون حكم الفرد المطلق والنظام العسكري القهري في باكستان. السلفية في النهاية رد فعل طبيعي على الحركات العلمانية للتحديث التي تمت تجربتها في حياتنا المعاصرة ليبرالية وقومية وماركسية. وكانت النتيجة مزيداً من الاحتلال. فقد ضاع نصف فلسطين في 1948 في العصر الليبرالي. وضاع النصف الثاني في 1967 في العصر القومي. وازدادت المسافة بين الأغنياء الجدد والفقراء الجدد. واشتد القهر. وضاعت قيم الحرية والعدالة معا. السلفية صرخة احتجاج ضد مآسي العصر، تبعية النظم وعجز الشعوب.

تشتعل الفتنة بالهجوم المستمر للعلمانيين على السلفيين وملأ الصحف بالسخرية منهم. فيلجأ السلفيون إلى القضاء للثأر منهم. ويستصرخ العلمانيون حرية الرأي والتعبير دون الدعوة إلى الحوار الوطني بين فرقاء الأمة. ويستنجدون بالرأي العام بل وبالدولة لحمايتهم من أحكام القضاء ضدهم بالتعويض. وهو ما تتخذه القوى الأجنبية ذريعة للدفاع عن حقوق الإنسان وحرية الرأي والتبشير بالديموقراطية وبقيم العالم الحر. وينشغل الناس بالفتنة بين مؤيد لهذا الفريق ومناصر للفريق الآخر. فتنقسم الأوطان إلى فريقين متصارعين تاركين الصراع الحقيقي بين الداخل والخارج، بين الاستقلال الوطني والتبعية الخارجية. وتفتح جبهة جديدة تشتت الجهود، وتبعد الناس عن الجبهات الحقيقية في الداخل، حرية الصحافة والرأي ضد قانون حبس الصحفيين، مواجهة الفساد والقهر والتزوير والتوريث وحكم الفرد المطلق، ومعارك العمال وإضراباتهم لنيل حقوقهم، والمخاطر التي تواجه سوريا ولبنان والسودان وإيران. وبدلا من الهجوم في الصحف من العلمانيين واللجوء إلى القضاء من السلفيين هناك الحوار الوطني بين اتجاهات الأمة المختلفة. فالكل راد والكل مردود عليه. كلا الفريقين ضحايا الفرقة الناجية. فالسلفيون يعتبرون أنفسهم الفرقة الناجية، والعلمانيون الفرق الضالة. والعلمانيون يعتبرون أنفسهم الفرقة الناجية والسلفيون الفرق الضالة. والحكومة تعتبر نفسها الفرقة الناجية والمعارضة الإسلامية ممثلة في الإخوان واليسارية ممثلة في كفاية والناصريين ومؤسسات المجتمع المدني هي الفرق الضالة. البنية واحدة في تكفير المخالفين في الرأي. وهو ضد الإسلام الذي يقر بحق الاختلاف وضد التعددية التي تقرها العلمانية باسم حرية الرأي والتعبير.

إن الفتنة نائمة. لعن الله من أيقظها. التناقض بين السلفيين والعلمانيين تناقض فرعي في الداخل. والتناقض بين الوطن وأعدائه في الخارج، أمريكا والصهيونية، وفي الداخل، القهر والفساد تناقض رئيسي. إن الحرص على وحدة الأوطان مشروط بوحدة الداخل في مواجهة الخارج "*أشداء على الكفار، رحماء بينهم*". والسلطة ليست للحكومة أو للمعارضة بل للشعب والتاريخ.

4- العلمانية السلفية:

بعد تخلى مصر عن دورها الإقليمى في الوطن العربى والعالم الإسلامى، وانكماشها، وانكفائها على ذاتها، والسعى وراء لقمة العيش، وضمور الخيال السياسى، ونسيان الدوائر الثلاث: العربية، والأفريقية الأسيوية، والإسلامية التى تطبقها إسرائيل الآن باحتلالها مركز مصر في أفريقيا وآسيا. أصبحت تركيا وإيران أهم دولتين إقليميتين حول مصر، شمالا وشرقا. تتفاوض معها قوى الهيمنة الجديدة، الولايات المتحدة الأمريكية، على قضايا الوطن العربى في فلسطين والعراق بل والعالم الإسلامى في أفغانستان.

وكما تحتاج مصر إلى ثقتها بنفسها وبقدرتها على التأثير في محيطها وفي مجالها الحيوى تحتاج تركيا وإيران أيضا إلى إعادة بنائهما من الداخل. تحتاج تركيا إلى إعادة النظر في تاريخها الحديث منذ إلغاء الخلافة في 1924 وتبنى النموذج الغربى. كما تحتاج إيران منذ ثورتها المعاصرة في 1979 إلى إعادة تكوين جبهتها الداخلية حتى تكون ركيزة تحديها لقوى الهيمنة الخارجية.

كان الضابط مصطفي كمال على حق أولا في القيام بثورته ضد نظام الخلافة الذى أدى في رأيه إلى احتلال اليونان لتركيا حتى أبواب أنقرة، وقد كانت تركيا من قبل باسم الخلافة على أبواب فيينا. وكان على حق ثانيا في رؤيته مظاهر القهر الداخلى في تركيا للمعارضين القوميين العرب والأرمن وباقى الأقليات بعد أن كان نظام "*الملة*" من قبل قادرا على لم شمل أقطار الخلافة كما فعل ميثاق المدينة من قبل في جمع العرب حول الدين الجديد. وكان على حق ثالثا في القضاء على مظاهر التخلف من شعوذة وخرافة وسحر وجهل وسيطرة رجال الدين، وتبنى النموذج الغربى القائم على العقلانية والإنسانية والتقدم والمجتمع المدنى والمؤسسات الديموقراطية والحداثة. وقد كانت هذه قيم الإسلام في عصره الذهبى والتى أقام على أساسها العمران كما يشهد بذلك إبداع المسلمين في العلوم الرياضية والطبيعية، وآثارهم في الأندلس، غرناطة وأشبيلية وقرطبة وطليطلة. واستانبول مدينة الألف مئذنة مثل القاهرة.

وبعد انقضاء أكثر من ثمانية عقود من الزمان على الثورة التركية بدأت المراجعة في الاختيار العلمانى التركى. فلا هى بقت ضمن العالم الإسلامى ولا هى انضمت إلى الاتحاد الأوروبى. تعثر الاقتصاد التركى، وأصبحت تركيا عضوا بحلف شمال الأطلنطى. وعلى أرضها القاعدة العسكرية الأمريكية "*انجرليك*" والتى تمثل قاعدة للعدوان على الوطن العربى كما حدث في العراق, وربما يتكرر في إيران. وظهرت حركات إسلامية أصولية أو تحديثية تبين أن ارتباط تركيا بالإسلام لم يتوقف

وكما بدا ذلك في ظاهرة أربكان وحزب" *رفاه*" ثم حزب "*الفضيلة*" ثم حزب "*العدالة والتنمية*" الحاكم الآن.

ومع ذلك مازالت العلمانية اختيارا مقدسا بنص الدستور. والجيش هو المدافع عنها. وأجيال جديدة تربت على هذا الاختيار مازالت قادرة على النزول إلى الشوارع والتجمهر والتحزب دفاعا عنها ضد أى مساس بها أو حتى قراءة جديدة لها بعد مرور أكثر من ثمانية عقود من الزمان على الاختيار الأول. أصبحت العلمانية الآن تهدد نفسها، وتهدم قيمها بنفسها، وتتخلى عن مبادئها. تحولت إلى علمانية سلفية تدافع عن الماضى أكثر مما ترنو إلى المستقبل.

أصبحت علمانية متوحشة شرسة، تتوعد وتهدد، وتنذر بالانتقام من الإسلاميين كما كان الحال في نهاية عصر الخلافة. صارت علمانية مطلقة مع أن العلمانية اتجاه نسبى، لا يمتلك الحقيقة المطلقة. صارت علمانية إقصائية، تستبعد الاتجاهات الأخرى حتى ولو كانت علمانية نسبية، إنسانية، ثقافية، إصلاحية أو حتى تراثية، أى البحث عن جذور العلمانية في الثقافة والتراث والتاريخ. والدليل على ذلك قضية الحجاب الذى تحجر عليه العلمانية وتقصيه مع أن العلمانية تقوم على الحرية والاختيار الشخصى واحترام الرأى الآخر. فالحجاب أو السفور كلاهما جزء من الحرية الشخصية.

انتقلت تركيا في 1923 من خلافة إسلامية إلى خلافة علمانية دون المرور بمرحلة لبيرالية متوسطة تتحول فيها تركيا من المطلق إلى النسبى. وهو أكثر اتفاقا مع روح العلمانية. كان الاختيار العلمانى لجمعية الاتحاد والترقى والقومية الطورانية مطلقا مضادا للعثمانية دولة الخلافة. فانتقلت تركيا من مطلق إلى مطلق دون الأخذ بالاختيار الثالث وهو الإصلاح الذى دافع عنه الأفغانى، التغير من خلال التواصل، التجديد دون التقليد سواء كان التقليد للقدماء أو للغربيين المحدثين. وهو ما حدث أيضا في روسيا في نفس الفترة أو قبلها بست سنوات في الثورة الاشتراكية في 1917 عندما تحولت روسيا من مطلق القيصرية إلى مطلق الاشتراكية، من نسق مغلق إلى نسق مغلق مضاد، دون المرور بمرحلة لبيرالية نقدية لتتحرر من ذهنية المطلق. فانهار الاختيار الثانى في 1990 كى تمر بمرحلة لبيرالية 'ديموقراطية جديدة تكون أساسا لأى اختيار آخر رأسمالى أو اشتراكى. وهو ما حدث في أوروبا الشرقية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عندما تحولت من المطلق الكاثوليكى إلى المطلق الماركسى مباشرة دون المرور بمرحلة متوسطة هى النسبية الليبرالية والعلمانية المتعددة. كان يحمى الخلافة في تركيا، جند السلطان. والآن يحمى العلمانية الجيش الوطنى. وفي كلتا الحالتين، سيطرة العسكر.

وبرز حزب العدالة والتنمية ليشق طريقا وسطا بين حزب الرفاه و"*الأربكانية*" والرومانسية الإسلامية التى قرأها البعض عودا إلى نظام الخلافة وبين العلمانية القحة التى ترفض الحوار، وتتمسك بالاختيار القديم مهما تغيرت الظروف وكأن الزمن لم يعد له حساب. يناضل من أجل تعددية سياسية وهى روح العلمانية، ومن أجل العودة إلى الشعب وسؤاله عن الاختيارات الرئيسية للبلاد مثل انتخاب رئيس الجمهورية بالاقتراع العام وليس من خلال البرلمان. والديموقراطية روح العلمانية. ويحاول الاستقلال عن الهيمنة الأمريكية كما حدث في رفض مرور القوات الأمريكية على أراضيه لغزو العراق من الشمال في حين قرر بعض الحكام العرب كقرار فردى الاشتراك مع أمريكا بأشكال متعددة في غزو العراق. ويبتعد عن إسرائيل، ويلغى اتفاقيات التسليح معها ويتقارب إلى العرب خاصة مصر وسوريا، ويساهم في عمليات التنمية والبناء في عديد من الأقطار العربية بما في ذلك مصر.

وتشهد تركيا بفضل حزب العدالة والتنمية أكبر معدل في خطط التنمية والتصنيع والتحديث. فقد كانت سباقة في ذلك منذ "*التنظيمات*" التى كانت سائدة في القرن التاسع لتحديث المجتمع والدولة والمؤسسات. تصدّر أكثر مما تستورد، وتصنّع أكثر مما تزرع.

وهى الآن تعنى موقعها الجغرافي السياسى كجسر بين الشرق والغرب، بين آسيا وأوروبا كما وعته مصر قديما بالإضافة إلى أفريقيا. فتركيا ملتقى قارتين، ومصر ملتقى ثلاث قارات. وفتح السلطان سليم الأول مصر في 1517 وامتدادها إلى المغرب العربى حتى الجزائر. كان يضم أفريقيا إلى آسيا وأوروبا. وتقوم بدور تركيا ومصر في آن واحد. وهو ما حاوله محمد على من جديد انطلاقا من مصر لتجديد المشروع العثمانى. وانضمامها إلى الاتحاد الأوروبى إضافة لها وليس خصما منها لتوسيع حضورها في أوروبا، ولتخفيف التوتر بين الإسلام والغرب، والتخوف من هجرات العرب والمسلمين إلى أوروبا، وانتقال العمالة من جنوب البحر الأبيض المتوسط إلى شماله، وتغير الهوية الأوروبية إلى هوية إسلامية أو على الأقل إسلامية أوروبية بعد أن أصبح الإسلام هو الدين الثانى في أوروبا بعد المسيحية ووجود ما يقرب من أربعة عشر مليونا من المسلمين، الأتراك والعرب في أوروبا، ووجود جيلين من الأبناء والأحفاد من مواليد أوروبا وليسوا من المهاجرين كما كان في الآباء والأجداد.

إن بين العرب والأتراك تاريخ مشترك منذ أكثر من ألف عام منذ دخول الإسلام إلى تركيا، والشعب التركى إلى الإسلام. فُتحت القسطنطينية. واستمرت دولة الخلافة أكثر من خمسة قرون. لها جوار مشترك مع سوريا والعراق.

ينقصها حل المشكلة الكردية ليس فقط في تركيا بل حلها أيضا في شمال العراق وسوريا وروسيا وأرمينيا في إطار من الاستقلال الذاتى، وحدود مفتوحة، وهوية ثقافية وقومية في إطار الدول

الوطنية القائمة. وهو نفس النموذج المطروح لقضية الصحراء في المغرب وجنوب السودان ودارفور. وهو النموذج السويسرى الذى يضم ثلاث قوميات وثقافات ولغات، إيطالية وألمانية وفرنسية، في إطار من نظام سياسى موحد ودولة واحدة. وهو نموذج ميثاق المدينة في أول الرسالة. وبقت قضية لواء الاسكندرونة التى يمكن حلها في إطار محافظات التكامل بين تركيا وسوريا مثل حلايب وشلاتين بين مصر والسودان، وكل مناطق النزاعات الحدودية من مخلفات الاستعمار بين الأقطار العربية حتى تتآكل فكرة الحدود السياسية لصالح وحدة الشعوب على طرفي الحدود. فالهوية من التاريخ والثقافة والحضارة قبل أن تكون من الجغرافيا، السهول والأنهار والمياه.

أما المياه، مياه دجلة والفرات فهى مصادر طبيعية للتنمية المشتركة بين تركيا وسوريا والعراق لإقامة السدود وزراعة الأراضى أسوة بالدول المطلة على وادى النيل، وتجنبا لمدها إلى إسرائيل.

والأهم من ذلك تغيير صورة التركى في الذهن العربى، تلك الصورة التي رسما الاستشراق وأجهزة الإعلام الغربية والأعمال الأدبية والفنية حتى أصبح تعبير "*رأس تركى*" يعادل المتعصب الجاهل. وهى صورة الحريم والإماء والسبايا وتعدد الزوجات والسراى التى تثور عليها الحركات النسائية.وهى صورة السيطرة والقهر واستغلال الفلاحين، صورة الباشا والأغا "*أهلا يا بكوات*".

إنها مسئولية العلماء لإعادة كتابة التاريخ العثمانى لتركيا بعيدا عن تصورات المستشرقين وأجهزة الاستعمار الغربى التى كان الهدف منها القضاء على "*الرجل المريض*" من أجل تقطيع جثته وتوزيعها كأسلاب بين دول أوروبا الناهضة. إنها مسئولية القوميين والمؤرخين العرب لتجاوز الخلافات الأيديولوجية إلى البحث التاريخى الموضوعى، مساعدة للعرب والأتراك. فليست مشانق دمشق للقوميين العرب في 1913 هى كل التاريخ. ولا الملتزم التركى الذى يضرب الفلاحين بالسياط هى كل العلاقات بين تركيا والعرب. وما الفرق بين مآذن الجامع الأزرق في استانبول ومآذن القلعة في القاهرة؟